

الحزب الثوري صورة لمستقبل الأمة

أيها الرفاق^(١)

إنها مرحلة في غاية الخطورة، هذه المرحلة التي تعيشها أمتنا، والحزب الذي يجب أن يجعل هدفه دوماً أن يكون ضمير هذه الأمة وعقلها وساعدها الايمن، عليه أن يستوعب أهم المقومات، أهم الصفات والملامح للمرحلة التي يعيشها على ضوء تجاربه السابقة مستفيداً من التجارب الثورية بصفة عامة. لن نشعب البحث كثيراً، بل يكفي ان نتذكر بعض الظروف والتجارب التي مرت على حزبنا وعلى امتنا في السنوات الاخيرة.

إن تجربة عام ٦٣ تجربة ما تزال حية في الذاكرة، في الاذهان، وهي غنية بالدروس، ولن نقصرها على هذا القطر بل كان للحزب في الوقت نفسه تجربة في القطر السوري أيضاً وانتهت تقريباً الى نفس النتائج. فما هي الدروس التي نستخلصها من تجربة الحكم في عام ٦٣ في العراق، ثم في سوريا؟ لم يكن الحزب مهيباً لاستلام تلك المسؤوليات الضخمة التي استلمها في قطرين هامين لأن الشرط الاول هو ان يكون الحزب مسيطراً على نفسه، هو أن يكون الحزب مالكاً لارادته، يعرف طريقه، ان يكون وحدة مترابطة وشفافة، اي ان يشملته توجيه واحد ويحرك سيره هدف واحد ومنطق واحد، وان يكون ثمة تجاوب كامل وعميق بين القواعد والقيادات، وان يكون عمل القيادات معروفاً بتفاصيله وبدوافعه ومبرراته لدى القواعد، وان تكون إرادة القواعد ونظرتها وملاحظاتها معروفة لدى القيادات، ومؤثرة وفعالة يؤيدها النضال، وان يكون

(١) حديث ألقى في قاعة المجلس الوطني ببغداد في ايار ١٩٦٩.

ثمة ما يحول الى حد كبير دون تزييف تلك الارادة، أو تشويهاها أو الاستخفاف بها، وهكذا يمكن ان يعرف الحزب في أية لحظة ماذا يريد، وماذا عمل، وكم قطع من الطريق، وهل سار في الطريق السوي، وكم بقي عليه في مسيرته من خطوات؟ وهكذا يستطيع الحزب ان يتدارك الاخطاء ويصححها في الحين المناسب، في حين وقوعها دون ان تراكم ودون ان يفسح تراكمها مجالاً للعقد والشكوك والاحقاد.

أيها الرفاق

طالما سمعتم في حزبكم بأن الحزب الثوري الصحيح هو الذي يكون الصورة لمستقبل الامة . الصورة المصغرة للمستقبل السليم الذي يناضل الحزب وتناضل الامة من اجل بلوغه . لا يمكن لحزب مريض ان ينجح في نضاله، ان ينجح في معالجة أمراض الامة والمجتمع . فالشرط الاول الاساسي هو إذن ببساطة هذه السلامة في التفكير، في العلاقات الحزبية، في الوضوح الفكري وفي الوضوح التنظيمي، في الديمقراطية الصحيحة التي تسمح دوماً بالتجدد وتصحيح الخطأ والتغلب على الضعف دون ان تؤدي الى الميوعة والفوضى، دون ان تكون مطية للوصول والانتهازية والفوضى والتخريب - هذا الدرس المستخلص من تجربة ٦٣، عندنا ثقة كبيرة بأن يكون قد هُضم واستوعب بدليل ان حزبنا في هذا القطر قد حقق عملاً فذاً في صموده وفي استئناف نضاله وتغلبه على الامراض وعلى اليأس والتشتت ومؤامرات الأعداء واستعداد ثقة الجماهير واستطاع ان يرجع الى مكان القيادة فيها .

ولكن من الواجب ومن الوفاء لهذا الحزب، من الوفاء لأمتنا المنكوبة أن نتذكر دوماً تلك الدروس وأن لانساها وأن لاياخذنا الغرور وأن لانستهين بقيم وقواعد في العمل الثوري هي ثمرة تجارب طويلة جربتها أمم غيرنا وكلفتها التعب الكثير والنضال الطويل والدماء الغزيرة . فالمبادئ والقيم والقواعد في العمل الثوري ليست كلاماً والفاظاً على الورق إنها تسجيل لتجارب حية، والثوري المخلص الأمين هو الذي يحترمها ويتعمق في فهمها ويمارسها ولو كانت طريقها أطول وأصعب من طريق تجاوزها والتحايل عليها وطريق الاستسلام للأهواء والنزوات والمطامع .

في القطر السوري أيها الرفاق، مرت تجربة هي أكثر هولاً وأعمق مرضاً من التي

مرت بالعراق. في العراق كانت القيادة التي استلمت مقدرات انتفاضة رمضان غير مؤهلة، غير ناضجة، وكبر عليها الحمل، ولعب في رؤوسها الغرور، ووقعت فريسة التناحر الصياني على السلطة وتخلت عن مسؤولياتها من ايامها الاولى، وكأن الغاية ان يزال حكم عبد الكريم قاسم، وكأنه لم يكن للبعث مهمة إيجابية، مهمة بناء، كأن كل مهمته كانت سلبية، ان يهزم عهداً ظالماً ثم يقعد ويستريح. لما انشغل القادة بهذه النظرات والأطماع والحسابات التي لاتليق بثوار حزينين يعملون للأمة العربية كلها أخذوا يتوسلون لتحقيق تلك الأطماع والمكاسب الشخصية، يتوسلون بوسائل مؤذية لسلامة تكوين الحزب ولسلامة نظامه وقيمه وعلاقاته بين اعضائه فلجأوا الى التكتلات، الى التزوير، تزوير إرادة القواعد، الى الاحتيال باسم النضال على النضال وباسم المبادئ ليخالفوا تلك المبادئ، تركوا النضال فسهلوا بذلك مهمة الرجعيين والمتآمرين والأعداء. والتهاوا وأهوا الجهاز الحزبي بالتوافه فلم يعد مستغرباً ان يحل بهم ما حل في فترة قصيرة جداً من الزمن.

ولكن الذي حدث في سوريا أيها الرفاق كان مؤامرة ولم يكن طيشاً ولا غروراً ولانقصاً في الكفاءة. كان مؤامرة مدبرة لتغيير معالم الحزب رسمت خطوطها قبل حركة آذار بعامين تقريباً منذ أيام الوحدة، عندما تشكل ما عرف باللجنة العسكرية في القاهرة من بعض العسكريين السوريين الذين كان لهم صلة سطحية بالحزب، خططوا لأن يستولوا على الحزب.

وبعد حركة آذار أو بعد الانقلاب العسكري الذي حدث في آذار في سوريا والذي كان الفضل الاول فيه لثورة رمضان التي عادت له الطريق وأعطته قوة الدفع والزخم، أخذوا ينفذون في السر والخفاء تلك الخطة التي لم تظهر للحزب وقواعده إلا بعد سنة أو سنة ونصف الى أن ظهر التدهور في الحزب وفي الحكم والى ان ظهر الصراع بين العسكريين أنفسهم، الصراع على السلطة الذي كشف خطتهم. ولعلكم تعلمون ان الحزب بقيادته القومية ما كان ليتبنى انقلاب آذار في سوريا لو لم تسبقه ثورة رمضان في العراق. ثورة رمضان كانت ثورة الحزب، كانت في الدرجة الاولى انتفاضة شعبية، خرج فيها شباب الحزب وحملوا السلاح وناضلوا واستشهد منهم أعداد، ولذلك

اطمأنّت قيادة الحزب الى ان هناك سنداً قوياً في العراق يسمح بالأمل بأن يتحول الانقلاب العسكري في سوريا الى ثورة وثورة بعثية ولكن سرعة انتكاس الانتفاضة في العراق أضعفت قدرة قيادة الحزب على السيطرة على من وصلوا الى السلطة نتيجة الانقلاب العسكري .

ونشأ الصراع بين الحزب وبين من اغتصبوا اسم الحزب وشعاراته دون أن يتقيدوا بمبادئه وبروحه وبنظامه وجعلوا من الحزب وسيلة لبلوغ السلطة والبقاء فيها . من كل ذلك نلاحظ تصميماً على محاربة قيادة الحزب، في كل هذه المظاهر، كل هذه الظواهر شيء واحد ثابت هو محاولة إضعاف سلطة القيادة العليا، محاولة الافلات من رقابتها . كان هذا وارداً بالنسبة الى القيادة التي ضيقت الحكم، حكم رمضان لأنها كانت تحاول دوماً أن تتهرب من رقابة القيادة القومية وكان هذا جلياً وواضحاً وقوياً في سوريا، انتهى بأن وجهوا الدبابات والمدافع ضد القيادة القومية . ولكن للموضوعية والانصاف نفرق دوماً بين طيش القيادة في عام ٦٣ في العراق التي كانت تتهرب من سلطة الحزب، ومن رقابة الحزب عليها لكي يخلوها الجو وليصل أفرادها الى المراكز التي كانوا يطمعون فيها، وبين خطة خبيثة مبيّنة وضعت في سوريا لتغير معالم الحزب بل لتغير مسيرة الثورة العربية في اتجاه معاكس للثورة الحقيقية أي بالدرجة الأولى باتجاه معاكس للوحدة العربية التي هي المعيار الأول للثورية في مرحلتنا هذه . فلننظر الى هذه الظاهرة ظاهرة محاربة القيادة القومية في حزبنا، إنها تدل على رواسب التجزئة في مجتمعنا وفي التربية السائدة فيه وفي المصالح المسيطرة عليه، كما تنم عن أصابع الاستعمار والصهيونية وجميع أعداء الأمة العربية الذين إن يخافوا شيئاً فإنما يخافون الوحدة العربية، ويخافون حزب الوحدة العربية الذي أتى في هذه المرحلة بالنظرية الصحيحة لتحقيق الوحدة .

فما هو رمز هذه الصفة وهذه النظرية في حزب البعث، هي القيادة القومية كمؤسسة لا كأشخاص، فكيف يمكن أن يكون حزب البعث العربي الاشتراكي أميناً لمبادئه قادراً على تطبيقها إذا لم يخلص لهذه التجربة البسيطة في حجمها ومظهرها؟ أن يكون على رأس الحزب قيادة من ١٣ - ٢٠ هم مناضلون عرب ثوريون، عرب دون

مراعاة للقطر الذي جاؤا منه . أن تكون قيادة هذا الحزب هي البرهان الأول على رفضنا للتجزئة وتمردنا عليها وتصميمنا على بناء الأمة العربية الواحدة، فإذا لم ننجح في أن نكون ١٠ - ٢٠ عرباً ثوريين أي بعثيين فكيف ننجح في جعل ١٠٠ مليون عربي لأن يكونوا أمة واحدة ودولة واحدة؟ قد يقال أيها الرفاق، قد تقولون وأنا أقول معكم، واقع القيادة القومية منذ أن أسست، هذه المؤسسة للحزب منذ أن شكلت واقعها ضعيف، ولكن هل نكتفي بمشاهدة هذا الضعف، هذا الواقع، ونسجله على القيادة القومية أم نتعمق قليلاً ونبحث عن أسبابه العميقة وبالتالي نقول بما أن القيادة القومية هي عنوان ثورية هذا الحزب إذا لم ننجح في تكوينها فلن ننجح في شيء! فلنحلل هذا الواقع أو فلنحلل أسباب ضعفه فنجد العلاجات ونتلافى هذا الوضع مهما كان صعباً، إذ لا يمكن إلا أن ينجح حزب البعث في إقامة هذه القيادة حتى تحصل الثقة عند أفرادها بأنه قادر على تحقيق أهدافه ومبادئه .

أيها الرفاق

ثمة أشياء كثيرة يمكن أن تقال عن هذه الظاهرة التي تعبر كما قلت عن الواقع العربي المتخلف الخاضع للاستعمار، الخاضع للاستغلال الرجعي، ثمة أشياء كثيرة يمكن أن تقال، لكنني أقدر بانكم أدركتم المغزى وأدركتم بأن هذه المرحلة بالذات، هذه المرحلة التي أتت بعد هزيمة حزيران هي المرحلة التي يطلب فيها من الحزب أن يبرهن على أصالته الثورية، أصالته القومية إذ لا شيء يتغلب على النكسة، على الهزيمة، على الصهيونية واسرائيل، على الاستعمار الذي هو وراء اسرائيل إلا الوحدة بمضمونها الثوري الذي وضعه حزبنا، فسير الحزب يجب أن يكون الآن أكثر من أي وقت مضى سيراً هادفاً إلى تحقيق الوحدة، وبالتالي ان يكون باستمرار مستلهم المنطق القومي، أن يعيش في الجو القومي، ان يبحث اموره الداخلية وسياسته بمنطق الوحدة، بمنطق الأمة العربية لابمنطق التجزئة الذي يريده لنا الاستعمار والصهيونية اللذان يحلمان بأن يعيدونا عشرات السنين إلى الوراء، بأن يقطعوا أوصال القطر الواحد بعد ان تمكنوا منا في حرب حزيران، فاحلام الاستعمار والصهيونية هي في أن يقطعوا الطريق على الوحدة العربية نهائياً إذا استطاعوا وإلى عشرات السنين في أضعف

احتمال، لأن هذا شرط أساسي لكي تبقى اسرائيل وتتوسع وهذا شرط أساسي لا بديل له لكي تبقى شركات الاستعمار وتتابع استغلالها، ومعنى بقاء اسرائيل ومعنى بقاء الاستغلال الاستعماري هو ان يبقى شعبنا في حالة التخلف لا يقوى على الخروج منها مهما حاول، ليسعى ويتوهم ويتحمس ويناضل ثم يجد نفسه في موضعه في مكانه او متراجعاً إلى الوراء، يجد نفسه في الفقر والبؤس والمرض والجهل وكل هذه مقرونة بالتجزئة، التجزئة تعني كل ذلك.

أيها الرفاق

لقد استبشرنا كثيراً بما حققتموه في قطرنا المناضل (العراق)، لقد استبشرنا كثيراً بالكفاءة التي أظهرتموها في استيعابكم لدروس الماضي وعبره، لدروس النكبات، واستطعتم إلى حد كبير ان تجنبوا حزبكم وتركيبه وسيره، وان تجنبوا التجربة الجديدة التي قمتم بها عديداً من الامراض التي وقعت في التجربة السابقة ولا أحد يريد لهذه الأمراض أن تعود، بل لن نسمح لها بأن تعود ويجب ان يكون تصميمنا جباراً مسؤولاً تتلخص فيه كل ثورتنا، يتلخص فيه كل إيماننا بامتنا وبحقها في الحياة، ان تنجح هذه التجربة وان تتابع سيرها سليمة من الأمراض الماضية والتي لا يجوز ان تتكرر لأننا وجدنا ووجد حزبنا لكي يعطي الثقة لشعبنا بنفسه لا إن يئس هذا الشعب وأن يظهر عدم جدارة الانسان العربي إذا تهاونا وتركنا التجربة ينتابها المرض والوهن، هذا التصميم بأن تكون هذه التجربة منطلقاً للحزب وللأمة العربية لكي يسير الحزب في هذا القطر وفي الأقطار العربية من نصر إلى نصر ولكي تعود الأمة العربية إلى السيطرة على مقدراتها في وجه الهجمة الاستعمارية لذلك ان ما استطعتم تحقيقه بالشجاعة، بالصبر، بالعمل الدؤوب، بالعمل مع الشعب الذي هو دوماً المرجع الذي يظهر النفوس ويرفع الأخلاق ويفتح المواهب، العودة إلى الشعب بتواضع وصدق ما دتم قد بدأتم السير في هذا الطريق فنريد ان نعزز هذه المكاسب التي حققتموها من وحدة في القيادة، من انسجام واخوة عربية ثورية، من ثقة متبادلة، من وضوح في النهج والتفكير، من مسؤولية في العمل، هذه الصفات نريد ان نحققها في أعلى قيادة في الحزب، نريد ان تجعلوا اولي مهماتكم تحقيق صورة القيادة القومية الصحيحة

السليمة، حزبنا في العراق مطالب بأن يكون سابقاً في تفهم الضرورة التاريخية لوجود القيادة القومية وان يتفهم بموضوعية وعمق الأسباب والعوامل الموضوعية قبل الذاتية التي سببت ضعف أعلى قيادة في الحزب ضعفاً مستمراً، فعندما تكون امامنا ظاهرة متكررة على مر السنين يجب ان يدعونا تفكيرنا العلمي إلى التساؤل عن الأسباب الموضوعية وراءها، وقد بينت لكم هذه الاسباب، كل ما في مجتمعنا وكل ما يتأمر على امتنا من استعمار ومصالح استعمارية ورجعية وكل ما في هذا المجتمع من امراض، من رواسب لا ثورية يتأمر على مؤسسة القيادة القومية، يحول دون تجسيد الفكرة القومية في اعلى مؤسسة قيادية في حزب البعث.

ما دامت الأمة العربية لم تتوحد بعد، ما دامت الدولة العربية لم تولد بعد ودونها مشاق ومشاق فالقيادة القومية ليس لها ارض، ليس لها ثورة خاصة بها، ليس لها حكم تمارسه، ليس لها سلطة، ولكن اذا فهمنا دورها التاريخي فإن لها الثورة العربية كلها، لها الوطن العربي كله، لها الحزب كله، اما إذا اكتفينا بالنظرة السطحية وارتضينا ان تبقى القيادة القومية رمزاً لاحقيقة وراءها ولا قوة بيدها واعتبرنا الصفة القومية لهذا الحزب شيئاً معنوياً باهتاً يضيفي على الحزب لوناً عربياً جامعاً وجعلناها منفي للذين ليس بيدهم سلطة، ليس لهم قوة، فاننا نكون قد أسأنا إلى حزبنا اكبر اساءة. نكون قد عرضنا حزبنا لنكسات جديدة ونكسات الحزب هي نكسات الأمة. نكون قد افقدنا حزبنا الدم والروح لان الصفة القومية ليست زينة يزدان بها الحزب، انها دمه وروحه، اننا في هذا الظرف العصيب الذي تجتازه الامة قد فوتنا فرصة تاريخية لكي نتغلب على الهزيمة بأن نشق طريق الوحدة، ولا يستطيع الحزب تحقيق الوحدة الكبرى إذا لم يحقق هذه النواة الصغيرة المصغرة للوحدة وهي قيادته العليا.

أيها الرفاق

ذكرت لكم كل هذا لانكم توافقونني على ان الشرط الاساسي لتحقيق الثورة هو ان يكون تركيب الحزب سليماً في قياداته وقواعده، فاذا انتهينا من هذا الشرط واستوعبناه حق الاستيعاب فأن بالامكان ان نتوجه إلى المهام المطروحة على الحزب في هذا القطر وفي كل الاقطار.

أيها الاخوان

المهام كثيرة والمصاعب كثيرة كذلك، المؤامرات الاستعمارية قد تصل إلى حد العدوان السافر عندما ييأسون من ضرب الثورة من داخلها. كيف نتصرف؟ إذا سرنا مع مبادئنا واهدافنا ذعر الاستعمار وخاف على مصالحه فتأمر وقد يصل إلى حد العدوان. هل نكنم مبادئنا ونتكتم في اهدافنا؟ هل نقبل التسويات، هل نرجىء ونؤجل او نمشي بجرأة ووضوح إلى آخر الطريق شريطة ان نوصل الثورة الى جميع الجماهير الشعبية في أقصى وأصغر قرية في هذا القطر وفي كل قطر، عندما يتمكن الحزب من ذلك الضمانة هي هذه، الحزب يقوم بانجازات أصيلة برهنت على صدق ثوريته وكسبت له ثقة جماهيرية وكسبت له اعتراف فئات تقدمية، بقي شيء فني متعلق بكفاءة الحزب واعضائه لكي يكون الحزب القوة الرادعة للاستعمار وعملاء الاستعمار وحتى يكون القوة التي تستطيع المجابهة عند اللزوم، امر متعلق بالكفاءة بحسن استغلال طاقات شعبنا احسن استغلال وتنسيق هذه الطاقات على أوسع نطاق وفي أقصر وقت ممكن. وذلك بأن يكون الوعي أساس القوة الجماهيرية. أن نوصل قضية الأمة، قضية الثورة العربية إلى وعي الجماهير. نوصلها يومياً بالتوعية الشاملة المتكررة التي تقترن بالتنظيم والممارسة والتي يجب في يوم ما أن تتوج بأن يحمل شعبنا وجماهير شعبنا السلاح ويحققوا أهداف حزبنا وأمتنا بالثورة المسلحة التي هي قدر الحزب والأمة بعد الآن.

أيار ١٩٦٩